اصيلا

سألني سائل عن هذه المدينة التي ورد ذكرها في تلغراف رويتر اذ قيل ان جنود الاسبانيين خرجوا منها لفك اسراهم من المغاربة . واراد معرفة اسمها العربي الصحيح الذي لا يزال مستعملاً عند اهل تلك البلاد الى اليوم . دعاهُ لهذا السؤال اختلاف الجرائد اختلافاً عظيماً في تسميتها وقال انهُ رآهُ في المؤيد « ارجيلة » وفي المقطم « ارزيلا » وفي الاهرام « ارسيلا » واما الجريدة فقالت انهُ « عرزيلا » . فاثبت بهذا البيان ليكون فيهِ تذكرة للجمهور فاقول

في احدى مدائن المغرب الاقصى « مراكش » واسمها الصحيح « آصيلا » او « أُصيلة » ذكرها الشريف الادريسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وياقوت الحموي في (معجم البلدان) والوزير ابو عبيد البكري في كتاب (المسالك والممالك) وغيرهم من العلماء الاسلاميين الذين سيرد ذكر بعضهم في هذا البيان . وخلاصة ما قالوهُ انها مدينة صغيرة جدًّا واقعة على رأس الخليج المسمَّى بالزقاق « المعروف الآن ببوغاز جبل طارق » ويشرب اهلها من مياه الآبار ويخارجها آبار عذبة . وهي في سهلة من الارض حولها رواب لطاف والبحر بغربيها وجنوبيها . واذا هاج بلغ موجه حائط جامعها . وعلى مقربة منها مدينة القصر المذكورة في تلغراف رويتر وتمام اسمها قصر عبد الكريم . وبينهما نهر عذب تدخلهُ المراكب ثم يلتقي بنهر آخر فيتكون منهما نهر كبير هو المعروف الآن بنهر سبو (واسمهُ عند الافرنج قديمًا لوكوس Lucus) فيركب فيهِ الناس بالمراكب حتى يصلوا الى البحر « اي المحيط الاطلنطي »

وكان على مدينة اصيلة سور وكان لها خمسة ابواب وكان لها سوق حافلة يوم الجمعة

وقد اشتهر من اهلها نفر من كبار العلماء المنسوبين اليها نذكر منهم

اولاً المغيرة الكتاني وهو اصيلي « عن نفح الطيب »

ثانيًا ابو عبد الله الاصيلي سمع منهُ ابن جبير الرحالة الاندلسي الشهير « عن نفح الطيب »

ثالثًا احمد بن عبد الله بن موسى الكتاني من اهل اصيلا يعرف بابن العجوز « ترجمهُ ابن بشكوال في كتاب الصلة »

رابعاً عبدالله بن ابراهيم بن محمد الاصيلي « ترجمهُ الغرضي في تاريخ علماء الاندلس » وكان حرج الصدر ضيق الخلق

خامساً محمد بن عبدالله بن ابراهيم بن محمد بن عبدالله الاصيلي من اهل قرطبة (ترجمهُ ابن الابار في كتاب التكملة لكتاب الصلة)

سادساً عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الاموي المعروف بالاصيلي من كبار اصحاب الحديث والفقه والرحلة وهو من اهل رواة البخاري . وكان ابوهُ يسمّى ابراهيم زق الابرة لشكاسة كانت في خلقهِ وذكرهُ الضبي في بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس

وقد ذكر صاحب نزهة الحادي في اخبار القرن الحادي هذه المدينة باسم ثغر اصيلا وقال في جملة كلامهِ ان بني وطاس كانوا يقاتلون الافرنج فيها ومعها في مكان آخر « برباط اصيلا » لان فريقاً من المسلمين كانوا يرابطون بها لاقامة الدين ولحفظ الثغر من هجمات المغيرين . ولكن الثورات الداخلية والفتن الاهلية التي حدثت بتلك البلاد انتهت بتسليمها الى ملك البرتقال دون سباستيان سلمها اليهِ مولاي محمد بن عبد الله في حدود سنة ٩٨٣ هجرية فكان ذلك من جملة الاسباب التي نعاها عليهِ علماء المغرب الاقصى في رسالة طويلة اوردها محمد الصغير الوفراني في كتابهِ المذكور

ثم لما ثار الناصر بن الغالب بالله على عمهِ ابي العباس المنصور (صاحب المغرب الاقصى) واضطرّ الى الانهزام من وجههِ فرّ الى اصيلا والتجأ الى اصحابها من الافرنج ومنها عبر البحر الى جزيرة الاندلس عند طاغيتها

ثم اخلاها الافرنج في سنة ٩٩٧ هجرية ولكنهم قبل ان يخرجوا منها حفروا تحت قصبتها « يعني قلعتها » حفيراً وملأوهُ باروداً واوقدوا فتيلة تبلغهُ عند مقدار دخول المسلمين فجاهم الله من الوبال وكفى الله المؤمنين القتال . وكان ذلك في ايام دولة اشهر مشاهير امراء المؤمنين بالمغرب الاقصى واعني بهِ السلطان ابا العباس احمد الملقب في التاريخ بالمنصور الذهبي . وقد مدحهُ ابو العباس احمد بن القاضي واشار الى مكيدة البارود فقال :

يا ايها المنصور ابشر بالعلا فالله بلّغ في العدا المأمولا
انفاكم سيفاً لحتف عداتهِ وبكم غدا سيف الردى مفلولا
وهزمتمُ الشرك المبين بعزكم من غير سيف قد يرى مسلولا

واذبت اكباد الخيل بهمة وقتم دار العدى (آصيلا)
اكرم به من مالك بل صالح اضحى لبارود العداة خليلا
لا زال في افق العلا شمساً وفي عين العدى يشاكل الكحيلا

فلما تبدلت الاحوال وتقلبت الايام وتخاذل اهل البلاد هجم عليها الاسبانيون فاخذوها ولا تزال في ايديهم الى الآن

ونعود الى الكلام على اسم هذه المدينة عند العرب فنقول : ان القوم ارادوا التخفيف فقالوا فيها : « ازيلا » و« ازيلي » ولكن الاسم الصحيح هو كما ذكرنا « اصيلا » او « اصيلة » كما تدل عليه نسبة العلماء اليها . وقد قال الضبي في بغية الملتمس « اصيلة من بلاد العدوة بلد بقرب طنجة وهو اليوم خراب ويقال فيه ازيلا بالزاي »

بقي علينا ان نعرف لماذا قال الاسبانيون ارزيلا Arzila حتى اوقعوا مترجمي جرائدنا بالامس في ما وقعوا فيه . ان الاسبانيين حينما نقلوا الاعلام الى لغاتهم ارادوا ان يتقربوا ما امكنهم من اللفظ الذي كانوا يسمعونه من افواه العرب فلما صادفتهم الحروف العربية التي تستوجب الاطباق او التفخيم مثل الراء والصاد والضاد ونحوها وضعوا ما يقاربها من الحروف المخففة في لغتهم واضافوا اليها حرفاً ثانياً يقاربها ليكون دليلاً على كيفية النطق العربي . مثال ذلك انهم قالوا في الرملة Annambla (الرسلة) وفي الحمراء حمراء غرناطة Alhambra الهمبرا وفي القاضي alcalde « الكالدي » فاما « القائد » فيقولون فيه alcade الكادي . ذكرت ذلك لمنع الاشتباه الذي طالما يحصل للمترجمين عند ما يقع لهم هذا اللفظ الاخير فيترجمونه بالقاضي . وعلى هذا النحو قالوا في مدينة اصيلة « Arzila (ارزيلا)

هذا وقد ذكرت « الموسوعات الفرنسية الكبرى » "La Grande Encyclopédie Française"

هذه المدينة فقالت ما تعريبه : اسمها العربي اصيلة Asilah وهي قرضة صغيرة من بلاد مراكش واقعة على المحيط الاطلنطي فيما بين العرايش (Larache) وطنجه (Tanger) وعلى ٤٨ كيلومتراً من هذا البلد الثاني . كان لهذه المدينة الصغيرة شيء من الاهمية في الزمان القديم وقد اصبحت الآن قرية حقيرة تقيم بسكنها قوم من صيادي السمك لا يزيدون عن الالف نسمة وهي واقعة في مكان المدينة الرومانية القديمة التي كانت تسمى زيليا Zilia او زيليس Zilis

احمد زكي